

الفصل السادس

الصراع بين الأمة والاستعمار

عندما نزح العرب من سوريا ولبنان إلى القارة الأمريكية تسلاً أو جماعات تهریباً على ظهور السفن مسافرين عاديين أو هاربين، نزحوا يحملون كل هموم الوطن الذي ولدوا على أديمه أو درجوا على ساحله وجبله و وديانه، وعندما دفعت بهم مراكب النزوح إلى سواحل العالم الجديد هبطوا منها وهم محملون بالهم والوجع والهاجس.

(وكما هو معلوم شهد أواخر القرن التاسع عشر الميلادي زمن ميلاد الأوائل من شعراء المهجر، وكان مفهوم الوطني تجسد في أحاسيس شعراء المهجر، ثم تحول فيما بعد إلى فكر منظم، فالشعر الوطني الذي يعالج شؤون الأوطان الأولى للشعراء، ويصور في دار الهجرة آمال بلاد المهجر راصداً، يعلق عليها، ويستخرج العمدة منها)⁽¹⁾.

يقول برنادر سلي : (الرومانتيكية هي طريقة للإحساس أثرت منذ أواخر القرن الثامن عشر إلى يومنا هذا فالفن والأدب والفلسفة بل والسياسة)⁽²⁾.

وكانت الفلسفة السياسية في تلك الفترة موصولة بفلسفة عصر الأنوار، كفلسفة روسو وفولتير ومونتيسكيو وما فيها من مدد إنساني قامت على أصوله مبادئ الثورة الفرنسية، وكان شعراء المهجر متأثرين بهم وبفلسفتهم في الحياة، وفي الوقت نفسه كان جبران وغيره من الشعراء على صلة وثيقة ببعض الشعراء الأمريكيين وشواعرهم في ذلك الحين، إلا إن كثير من الباحثين يقولون إن شعراء المهجر تأثروا بالنزعة الرومانتيكية الأوروبية، ولكن الدكتور نادرة السراج تقول في كتابها شعراء الرابطة القلمية: (وأنا أسلم بوجود بعض الشبه بين المدرستين في المبادئ والأفكار عمومًا، ومع ذلك فأنا لا أرجع بعيداً إلى عهد الرومانتيكية الأوروبية التي طغت على الأدب الغربي بعد الثورة الفرنسية، بل أجد هذا أقرب من هذا بالنسبة لشعراء المهجر إلى الأدب الذي كان متأثراً بتلك الرؤية القوية التي ظهرت على أيدي إمرسين (1803-1884) وغيره من الشعراء الذين نزحوا في شعرهم نحو مذهب (الترانسنتنلزم) (Transcendentalism)، ومعنى هذه الكلمة العناية بكل ما هو روحي

¹ - المهاجرة والمهاجرون دراسة في شعر المهاجرين إلى القارة الأمريكية، د. خالد محيي الدين البرادعي، ص71، المجلد الأول، منشورات وزارة الثقافة- دمشق، سوريا، 2006.

² - Bernad Russell, A History of western Pilosophy, p 676, 1945, NEWYORK.

والسمو بالروح إلى آفاق علوية، ومعاونة كل من يعيش بالروح⁽¹⁾، وما يهمننا هنا أن شعراء المهجر كانوا متأثرين بمبادئ الثورة الفرنسية، حيث إن القانون الطبيعي عندهم يقتضي أن يعيش الناس في أمة، وكان الوطن عند فولتير كياناً معنوياً يعلو في وجوده على أية ملكية خاصة أو سطوة دينية، وهذا الشعور بالانتماء إلى الوطن لا يرتبط بمقدار الفائدة الشخصية التي يجنيها منه بل بالفائدة العمومية لكيان هو أكبر من مجموع أجزائه؛ هو الأمة أو الشعب المتمثل في الوطن، (وعندما يجتمع أولئك الذين يملكون حقولاً ودوراً للبحث في مصالحهم المشتركة فإنه يكون لي صوت في هذا المجلس فأنا جزء من كل جزء من المجموعة، جزء من الحقيقة ذات سيادة، وهذا هو وطني)⁽²⁾.

وتمتد مشاهد الصراع مع امتداد الحركة الأدبية على مدار العصور، ويصيبها من التغير والتحول ما أصاب الشعر ذاته فناً جمالياً، وإذا بالجانب السياسي يطرح أبعاداً جديدة في بيئات الشعر⁽³⁾.

وكان القاسم الجامع في حبّ الوطن والأمة بين شعراء المهجر هو النزعة الرومانتيكية الواقعية في أدبٍ هادف تفكيراً وتعبيراً لخلق أدب حر قوي يعنى بالمعاني والأفكار الكبيرة، ولا يتقيّد بالسفاسف التي تكبل أجنته دون التحليق والسمو، وتمجيد الإنسان وحضارته. وعكست الآثار الأدبية للحركة المهجرية إيمانها بالقيم والصفات الإنسانية الخالدة والفنية الجمالية والتقاليد التي تعطي الحياة معانيها وقيمها، وتمجيدها للخيال الفطري الذي لم تلوثه المادية والمدنية الصناعية الحديثة، الذي يتّصل بالأرض الطيبة والفلاحين وأهل القرى من مواطنيهم وثرى الوطن الحبيب، على عكس الحضارة المادية التي تسعى إلى هدم كل أنواع الطقوس والمراسيم ذات المدلولات والمعاني المهمة التي تعكس ترقّهم عن كل مبتذل ورخيص، وسخطهم الشديد على كل ما تخرجه عقول السوق للنيل من العقل وطهارته.

لأن شعراء المهجر نزحوا من وطن يغلي بالإشكالات والتحويلات ويضج بالعديد من التيارات، ولأنهم شرائح من هذا الشعب الذي يعيش تلك التحويلات ويشترك في دفع أو تقليص تلك التيارات، كان من الطبيعي أن ترحل معهم كل تلك الهواجس الحضارية

1 - شعراء الرابطة القلمية، د. نادرة السراج، ص 98.

2 - أمين الريحاني، مختارات ودراسات، د. ميشال خليل جحا، 320.

3 - ينظر أشكال الصراع في القصيدة العربية المرتكزات الكبرى وصيغ التحول، د. عبدالله التطاوي، ص 31، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 2004.

والسياسية والمتعاضدات الالءماعفة بما ففها اللعنة الطائففة الةف قام بها المءءلون كما غذاها المءربصون وراء البحار.

(بءفء لم فءءصر ءب شعراء المهجر لوطنهم على الءنن إلفه فءسب؁ بل كانوا فصورون هوان أنفسم ببعااءهم عن الأرض الةف أنبءءهم؁ كما فصورون هوان وطفنهم بسبب الاستعمار؁ وففصلون القول فف العلل الةف أنهكءه وءعلءه فءرءى برءاء الءل؁ وهم بعء ذلك فسءنءهضون من عزمءه؁ ففنشءون له الأناشفء الءماسفة المءءءفة؁ لفءفروا نءوءه وفبرزوا شوكة(1).

ولعل أبرز مفزاء الشعر المهجرى أن الشاعر فعبء عن إءساس قومه ومشاعره؁ مءلما فعبء عن إءساس نفسه ومشاعرها؁ وأن الأءاء الةف ءمر فف وطنه الأم ءءرك صءاها العمفق فف قلبه وشعره معاً؁ وللشعراء المهجرففن فف ءمفع القضافا الوطنفة؁ وفف ءورات الءرفة وفف نضال الوطن العربف ضد الاستعمار؁ وفف شءاء العرب ملاحم ءالءة؁ ولءفهم قصائء ساحرة(2). بءفء نرى كل الءفارات السفاسفة الةف ظهرت فف الشعر فف ءلك الفءرة ظهرت وبصورة أوضء فف شعر المهجرففن؁ ونءلمس ءملة الظواهر الفنفة والفكرفة فف شعرهم؁ الةف كانت أوسع ءصوراً؁ وأعمق ءءمساً وأكثر ءءراً فف الءعبفر عنها ورسمها مما ظهرت به فف الشعر الوطنف؁ فظلّ الوطن نشفء غربءهم وملاذ أشواقهم؁ فلا ءءء منهم من لم ءظهر بصماء الوطن فف أءبه بصورة مباءرة أو ففر مباءرة؁ وهم وإن اءفقوا على الءنن إلف وطنهم؁ فإنهم اءءلفوا فف وسفلة الءعبفر؁ (فالشمالفون بءاصة ءبران ومفءائفل نعفمة ءاء ءعبفرهم عن الوطن ءعبفراً فنئياً؁ فهم لم ففناءوه بأنفاس صارءة ملءاعة ففها ءرقة المغءرب وعفوفة المشءاق؁ ولكنه امءزء بأنفاسهم وفنهم فءاء أءبهم من وءف أءوائه وظروفه السفاسفة والءقاففة والالءماعفة)(3).

(وما سقاء ءمعة من مواطن عربف؁ فف وطن الأم إلا وسالء أغنفة ءزفنة؁ وفف مقطوعة شعرفة لشاعر مهجرى؁ وما زفر ءزفن؁ فف المشرق العربف؁ إلا وكان لآهءه وزفرءه صءى عمفق مؤءرفف الشعر المهجرى)(4).

1 - الءءفء فف شعر المهجر؁ ء. محمد مصطفى هءارة؁ ص100.
2 - ففظر قصة الأدب المهجرى؁ ء. محمد عبءالمنعم ءفابف؁ ص35.
3 - أءب المهجر؁ ء. صابر عبء الءافم؁ ص102.
4 - قصة الأدب المهجرى؁ ء. محمد عبءالمنعم ءفابف؁ ص35.

(ولكن رؤية الرومانتيكي العربي لقضية أمته، لم تبق سجينة الموقف العاطفي المحدود، بل تجاوزته للنظر في كبريات المشكلات والقضايا التي كانت مطروحة، ولمحاولة معالجتها، وما من شك في أن وضعية الاستعمار والتخلف التي كانت عليها سوريا ولبنان خلال العقود الأربع الأولى من القرن الماضي، قد هيأت مادة وفيرة للرومانتيكي العربي لكي يتناول هذه الوضعية المتردية بالدرس والتحليل ولكي يقدم لها حلولاً ناجعة)⁽¹⁾.

فهذا إيليا أبو ماضي يعلن في ديوانه (الخمائل) أن مأساة فلسطين حرّمت النوم على أجفانهم في المهجر، فكان السيوف كانت تحز بأكبادهم:

ديارُ السّلام، وأرضُ الهَنا	يَشقُّ على الكلّ أن تحزنا
فخطب فلسطين خطبُ العلى	وما كان رزء العلى هينا
سهرنا له فكان السيوف	تحز بأكبادنا هينا....
وكيف يزور الكرى أعيننا	ترى حولها للردى أعينا؟

أ أرضُ الخيالِ وآياته	وذاثُ الجلال، وذاث السنا
تصيرُ لغوا غائهم مسرّحا	وتغدوا لشذاذهم مكّما ⁽²⁾

وقصائد إيليا ثورية جاءت أول عتاب على أبناء بلاده ودعوتهم إلى الحياة ونبذ الجمود، وإلى التشبه بأحرار العالم كالأمم الأخرى. ويرى الشاعر في سكوت قومه مأساة كبرى، فهم لم يخلقوا لغير العز لكن حاضرم خال منه، مليء بما يخجل ويبكي، ويدعو الشاعر إلى السلم وإلى الثورة معاً، ويؤمن بالسلم وسيلة لرقى الحياة ويدعو إلى ثورة فيقول في قصيدة (في الليل):

أمن أجل أن يسلم الواحد	تطلّ الدماء وتفنّى الألوف؟
ويزرع أولاده الوالد	لتحصدهم شقّوات السيوف
أمورٌ يحار بها الناقد	وتدمي فؤاد اللبيب الحصيف
فيا ليت شعري، متى نفهم	معاني الحياة وأسرارها؟ ⁽³⁾

1 - أهم مظاهر الرومنطيقية في الأدب العربي وأهم المؤثرات الأجنبية فيها ، فؤاد فروري، ص167.

2 - الخمائل، إيليا أبو ماضي، من (قصيدة فلسطين)، ص378.

3 - ديوان إيليا أبو ماضي، تقديم زهير ميرزا، من قصيدة (في الليل)، ص277.

والثورة هذه تتكرر في قصائد عديدة منها (الشاعر والأمة) حيث يخاطب الشاعر قومه أن عدم شجاعتهم جلب لهم الذل وسبب لهم ظلم الغريب، محملاً إياهم تبعة تخاذلهم:

لَوْ فَعَلْتُمْ فِعْلَ أَجْدَادِكُمْ مَا قَضَى الظَّالِمُ مِنْكُمْ وَطَرَهُ
مَا لَكُمْ تَشْكُونَ مِنْ مُحْتَكِمٍ رُضْتُمْ أَلْسِنَكُمْ أَنْ تَشْكُرَهُ⁽¹⁾

ويخاطب إخوانه العرب في عهد الخلافة العثمانية فيقول:

وَجَعَلْتُمْ مِنْكُمْ عَسْكَرَهُ وَحَلَفْتُمْ أَنْ تُطِيعُوا عَسْكَرَهُ؟
كَيْفَ لَا يَبْغِي وَيَطْغَى أَمْرٌ يَتَّقِي أَشْجَعُكُمْ أَنْ يَنْظُرَهُ؟
مَا اسْتَحَالَ الْهَرُّ لَيْثًا إِنَّمَا أَسْدُ الْأَجَامِ صَارَتْ هِرَّةَ
وَإِذَا اللَّيْثُ وَهَتْ أَظْفَارَهُ أَنْشَبَ السِّنُّورُ فِيهِ ظُفْرَهُ!!⁽²⁾

بعد ذلك يذهب إلى الإيمان بأن الحرية أفضل ما في الوجود، وليس من قيمة قبلها، أو فضيلة تفوقها رتبة وأهمية، وتراه يثور فينكر أخوة الذين لا يؤمنون بها معشوقة مبتغاة:

مِثْلَمَا يَكْمُنُ اللَّظَى فِي الرَّمَادِ هَكَذَا الْحُبُّ كَامِنٌ فِي فَوَادِي
لَسْتُ مُغْرَى بِشَادِنٍ أَوْ شَادٍ أَنَا صَبٌّ مُتَيِّمٌ بِبِلَادِي
يَا بِلَادِي عَلَيْكَ أَلْفُ تَحِيَّةٍ

كُلُّ شَيْءٍ فِي هَذِهِ الْكَائِنَاتِ مِنْ جَمَادٍ وَعَالَمٍ وَنَبَاتٍ
وَقَدِيمٍ وَحَاضِرٍ أَوْ آتٍ صَائِرٌ لِلزَّوَالِ أَوْ لِلْمَمَاتِ
غَيْرَ شَوْقِي إِلَيْكَ يَا سُوْرِيَّةَ

كُنْ نَبِيًّا يَسْتَنْزِلُ الْإِلَهَامَا كُنْ مَلِيكًا يُصَدِّرُ الْأَحْكَامَا
كُنْ غَنِيًّا، كُنْ قَائِدًا، كُنْ إِمَامَا كُنْ حَيَاةً، كُنْ غِبْطَةً، كُنْ سَلَامَا
لَسْتُ مِنْي أَوْ تَعَشَّقَ الْحُرِّيَّةَ!!⁽³⁾

1 - ديوان إيليا أبو ماضي، من قصيدة (الشاعر والأمة)، تقديم زهير ميرزا، ص 430.

2 - السابق، ص 431.

3 - السابق، من قصيدة (يا بلادي)، ص 266-261.

ولعل أنات هذه الأمة العربية أيضاً هي التي أوحى إلى إيليا أبو ماضي أن يقول:

فَكَرْتُ فِيمَا نَحْنُ فِيهِ كَأَمَّةٍ وَضَرَبْتُ أَخْمَاسِي إِلَى أَسْدَاسِي
فَرَجَعْتُ أَخِيْبَ مَا يَكُونُ مُؤَمِّلٌ رَاجٍ وَأَخْسَرَ مَا يَكُونُ الْخَاسِي⁽¹⁾

ولتحقيق الحرية والخروج تحت سطوة الاستعمار اختلفت السبل لدى شعراء المهجر من شاعر إلى شاعرٍ آخر، فمثلاً نسيب عريضة أراد أن تتحقق الحرية لا عن طريق سفك الدماء وإزهاق الأرواح، بل اختار طريقاً آخر هادئاً مسالماً، سلاحه الوحيد هو الحق والفكر، فيقول :

فَنَسِرْ فِي الظَّلامِ فِي القَفْرِ، فِي الْوَحْشَةِ فِي الْوَيْلِ فِي الطَّرِيقِ الْمُجَاهِدِ
فَنَسِرْ أَعْزَلَيْنِ إِلَّا مِنَ الْحَقِّ سِلَاحًا وَ الْفِكْرَ حَادٍ وَقَائِدِ
وَإِذَا اشْتَدَّتْ الذُّنُوبُ عُوءًا فَتَقَابَلْ عُوءَاهَا بِالنَّشَائِدِ
وَإِذَا احْلَوْلَكَ الظَّلامُ أَضَاءً مَشَعَلَ الْقُلُوبِ مِثْلَ نَارِ الْمَوَاقِدِ⁽²⁾

أما في قصيدة (النهاية) فنحس أنه يثور بالغليان الذي يفور في دم الشاعر، ونلاحظ الثورة المتأججة في نفسه، إنها صرخة غضب، فيقول:

كَفَّنُوهُ.....
وَ اَدْفِنُوهُ.....
أَسْكِنُوهُ....
هُوَ اللَّحْدُ الْعَمِيقُ
وَ اَذْهَبُوا، لَا تَتَدَبَّوْهُ، فَهُوَ شَعْبٌ
مَيِّتٌ، لَيْسَ يُفِيْقُ
ذَلَّلُوهُ قَتَلُوهُ حَمَلُوهُ
فَوْقَ كُلِّ مَا يُطِيقُ
حَمَلَ الذِّلَّ بِصَبْرِ مِنْ دَهْوَرٍ
فَهُوَ فِي الذِّلِّ عَرِيقُ

1 - الخمائل، إيليا أبو ماضي، من قصيدة (لم يبق غي الكأس)، ص288.

2 - كما ورد في موازنة بين شعراء المهجر الشمالي وجماعة أبوللو، د. بوجمعة بويحيو، ص209، نسيب عريضة، الأرواح الحائرة، نسيب عريضة، من قصيدة (يا أخي)، ص43.

هَتَكَ عَرْضِ نَهْبِ أَرْضِ شَنْقُ بَعْضِ
لَمْ تُحَرِّكَ غَضَبَهُ
كُلُّهَا فِينَا وَلَكِنْ لَمْ تُحَرِّكَ سَاكِنًا إِلَّا لِسَانَ⁽¹⁾

إن نسيب عريضة في هذه القصيدة بلغ ذروة في سخطه على بني قومه من جزاء استكانتهم وخضوعهم للأمر الواقع.

(ثم يصور أعمال المحتلّين الطغاة، ويذكر في الوقت نفسه هذا الشعب بما يقوم به هؤلاء المحتلون من هتك للأعراض ونهب للأرض وشنق أبناء أمتهم، أليس كل ذلك كافياً ليحرك غضبه ويثور لنفسه ليضمن حق البقاء وعزة النفس، ويحث نسيب عريضة أبناء قومه المقيمين في المهجر للنهوض ومحاربة الخطر الذي يحوم حولهم، لا أن يكتفوا باللسان فحسب)⁽²⁾، ويعلن ثورته على الغاضب المعتدي، وينادي بني وطنه بأن يتأهبوا للأخذ بالثأر واستعادة الحقوق المسلوقة من قبل الاستعمار:

يَاشَاعِرِ الْأَوْطَارِ خَلِّ الْهِيَامَ

وَاصْنَعِ مِنَ الْأَوْتَارِ
قَوْسًا لِأَخْذِ الثَّارِ
وَاخْلَعْ قَمِيصَ الْعَارِ
وَالْبَسِ رَدَا الْجَبَّارِ
ثَارَاتِنَا شَتَّى عِنْدَ الزَّمَانِ
لَا تَمْحَى حَتَّى نَأْبَى الْهَوَانَ⁽³⁾

ولم يستطع المهجريون أن يوقفوا و يروا سورية ولبنان يرزحان تحت ظلم الاستعمار و غطرسته، وقد أبدى الشعراء نقمتهم على السلطة الحاكمة فهذا رشيد أيوب يقول:

جَرِّدُوا السِّيفَ فَقَدْ مَلَّ الْقَلَمُ خُلِقَ السِّيفُ لِتَحْرِيرِ الْأُمَمِ

1 - كما ورد في نسيب عريضة ، د. نادرة السراج، ص86، الأرواح الحائرة، نسيب عريضة، ص66، 65.

2 - موازنة بين شعراء المهجر وجماعة أبوللو د. بوجمعة بويغيو، ص27.

3 - كما ورد في موازنة بين شعراء المهجر الشمالي وجماعة أبوللو، د. بوجمعة بويغيو، ص278، الأرواح الحائرة، نسيب عريضة، ص81.

وَاجْتَنُوهَا فَرَصَةَ الدَّهْرِ الَّتِي
يَا أَصِيحَابِي الْأَلَى قَدْ رَتَعُوا
وَأُبَاةَ الضِّيمِ أَرْبَابَ النَّهْيِ
كَلَّمَا فَكَّرْتُ فَيَكُمُ هَاجِنِي
قَطَّبَ الدَّهْرُ مُحْيَاهُ بِكُمْ
فَاسْتَفِيقُوا إِنْ طُمَحْتُمْ لِلْعُلَا
لَيْسَ يَجْدِيكُمْ إِذَا فَاتَتْ نَدَمُ
فِي بِلَادِ الظُّلْمِ حَيْثُ الْجَوْرُ عَمُ
وَمَنْ اخْتَصَّتْ بِهِمْ تِلْكَ الشِّيمُ
أَلَمٌ فِي طَيِّ أَحْشَائِي أَلَمٌ
وَلَكُمْ لَوْ شِئْتُمْ الدَّهْرُ ابْتَسَمَ
إِنَّمَا نَالِ الْعُلَا مَنْ لَمْ يَنْمُ (1)

يقول الدكتور محمد مصطفى هدارة في كتابه التجديد في شعر المهجر: (ولعل خير ما يمثل هذه الخطوة التجديدية في حياة الشعر العربي من جعله تعبيراً صادقاً عن رغبات شعب، وآمال أمة، وتسجيلاً دقيقاً لآلامها وما تلقاه من عنت وجور واضطهاد وما يشيع فيها من فساد وسوء نظام) (2).

ويأتي جورج صيدح في طليعة هؤلاء الشعراء؛ إذ شارك في كثير من المؤتمرات الوطنية، ودعا إلى نبذ التعصب، والأخذ بروح التسامح، ومن أشهر قصائده الوطنية، قصيدته الموسومة بـ (أم النسور):

أَمْ النَّسُورُ تَفَرَّسِي وَتَأْمَلِي
هَذَا فَتَّاكَ إِلَى مَتَى نُكْرَانِيهِ
أَعْرِفْتُ وَجْهَ الْقَادِمِ الْمُتَهَلِّلِ
أَوَلَيْسَ فِي لَبَدِ سِمَاتِ الْأَجْدَلِ

عَادَ الزِّمَامُ إِلَى يَدَيْكَ بَعُودَتِي
وَأَنَا الَّذِي قَرَّبْتَ رُوحِي لِلْحَمَى
حَاشَاكَ يَا وَطَنِي تَرْدُ السَّهْمِ لِي
وَسَجَدْتُ فِي مَحْرَابِهِ وَالْهَيْكَلِ
بَدَمَ الشَّبَابِ خَضِبْتُ وَرَدَ رِيَاضِهِ
مَا زِلْتُ أَسْتَجِدِّيهِ حَتَّى رَقَّ لِي
بَرْدِي وَمَدَّ ذِرَاعَهُ فِي الْجَدُولِ (3)

ومن شعره الوطني أيضاً نقتطف هذه الأبيات من قصيدة (القطيعة):

حَلَّلِ الْحُبَّ مَا التَّعَصَّبَ حَرَمَ
فَلَا تَحْدُنَا وَمَا خُلِقْنَا لِنَقْسَمَ

1 - الأيوبيات، رشيد أيوب، من قصيدة (سوريا)، ص 62.
2 - التجديد في شعر المهجر، د. محمد مصطفى هدارة، ص 103.
3 - كما ورد في أروع ما قيل في الوطنية، د. يحيى شامي، ص 18، دار الفكر العربي، الطبعة الأولى، بيروت، 1993.
ديوان نبضات، جورج صيدح، ص 33.

وَاعْتَقْنَا دِينَ الْعُرُوبَةِ دِينًا وَاطْرَحْنَا لَزُومَ مَا لَيْسَ يَلْزَمُ
شَرَعَ مَجْدُنَا سِوَاءَ نُسَبْنَا أَزْرَ صِنِينَ أَوْ نَخِيلَ الْمُقْطَمِ
بَيْنَ لُبْنَانَ وَالشَّامِ لُبَانًا رَضَعَاهُ وَلَمْ يَزَلْ يَتَوْحَّمُ
مَا بَنَاهُ عُلُوجُ عَهْدِ إِنْتِدَابِ كَيْفَ تَبْنِيهِ دَوْلَةُ الْخَالِ وَالْعَمِّ(1)

(وهذا إلياس فرحات يدعو العرب من مهجره البعيد في أجمل أشعاره، صادق العبارة، خافق النبوة وجياش العاطفة، كاد أن يدفع حياته ثمنًا لمواقفه الجريئة مع الأمة العربية، ولإيمانه الراسخ بتحرير الوطن العربي من نير الاستعمار والاستعباد)(2):

مَوْطِنِي مُنْبِتُ الرِّمَاحِ وَقَوْمِي مَوْرِدُوهَا الْأَضْلَاعُ وَالْأَصْلَابُ
وَهُمُ الضَّارِبُونَ فِي كُلِّ صَقَعٍ لِلْمَعَالِي وَلِلْمَعَانِي قَبَابًا(3)

ويصور فرحات آلام أمته فيقول:

إِنَّ فِي أَضْلَاعِنَا مِمَّا جَنَى الدَّهْرُ سَعِيرًا
نَحْنُ أَمْلُنَا كَثِيرًا فَتَلَمْنَا كَثِيرًا
وَرَجَوْنَا الْمَجْدَ تَاجًا فَحَمَلْنَا الذُّلَّ نِيرًا
بَاعْنَا السَّوَاسَ أَغْنَامًا وَسَاقُونَا حَمِيرًا
أَطْعَمُونَا الصَّبْرَ فَجَا وَسَقُونَاهُ عَصِيرًا(4)

وإن فرحات لم يكن همه وطنه فحسب بل كل الأمة:

مَا الشَّامُ مَا لُبْنَانُ مَا حُورَانُ مَا عَمَانُ مَا الْقُدْسُ الشَّرِيفُ الْخَالِدُ
هَذِي الدُّوَيَّاتِ الْمُبْعَثَرَةُ الْقَوَى عَمْدُ يَقُومُ بِهِنَ بَيْتٌ وَاحِدٌ(5)

ثم يقف في سان باولو مخاطبًا فرنسا التي استعمر لبنان فيقول:

حَارِبِي الْحَقَّ وَاقْتُلِي الْآدَابَا إِنَّ فِي ذِمَّةِ الزَّمَانِ الْحِسَابَا

1 - كما ورد في أروع ما قيل في الوطنية، د. يحيى شامي، ص18. ديوان نبضات، جورج صيدح، ص33.
2 - السابق، ص20.
3 - كما ورد في التجديد في شعر المهجر، د. محمد مصطفى هدار، ص106، ديوان فرحات، ص14.
4 - السابق، ص101، مجلة الحديث سنة 1948.
5 - كما ورد في العصابة الأندلسية، د. نعيمة مراد، ص133، من ديوان الصيف، إلياس فرحات، ص106.

يَا ابْنَةَ الْعَرَبِ لَنْ تَرَى بَعْدَ هَذَا الْيَوْمِ فِي الْمَشْرِقِ إِلَّا ضَبَابًا
يَا دِمَشْقَ الثَّكْلَى دَعِيَ الْحُزْنَ لِلْمُسْتَسْلِمِينَ الْمُقْبِلِينَ الثَّرَابَا
قَدَسَتْ أَرْضُكَ الدِّمَاءُ الَّتِي سَالَتْ عَلَيْهَا وَأَوْدَعَتْهَا مَلَابِـ
فَعَدَا الشَّعْبُ فِيكَ أَسْمَى مِنَ الْأَرْزِ الَّذِي شَقَّ السَّمَاءِ السَّحَابَا(1)

ويقول بحق شهداء ميسلون:

بُفْعَةً فِي الْأَرْضِ نَالَتْ شَرَفًا رَفَعَ السَّهْلَ عَلَى أَرْفَعِ قَمَمِهِ
لَوْ أَخَذْنَا الْمَجْدَ مِنْ تَرَابِهَا وَنَثَرْنَاهُ عَلَى السَّكُونِ لِعَمَمِهِ(2)

كان حس الشعراء المتوهج بالنزوع القومي إذن يتحرك على ألسنة الشعراء الرواد في أوائل القرن الماضي على محورين؛ محور عربي ومحور عربي مهاجر، ويكي فوزي المعلوف هو ان أمته الذي أدى إلى هوانه في غربته، يقول:

أَنَا الْغَرِيبُ فَلَا أَهْلَ وَلَا وَطَنَ إِذَا انْتَسَبْتُ أَمَامَ النَّاسِ وَانْتَسَبُوا
وَلَا لَوَاءَ إِذَا دَقَّ النَّفِيرُ مَشَى يَحْمِيهِ مِنْ صِيدِ قَوْمِي الْعَسْكَرُ اللَّجْبُ
وَمَنْ يَكُونُ غَرِيبًا فِي مَوَاطِنِهِ لَا بُدَّعَ إِنْ أَنْكَرَتْهُ الْأَرْضُ وَالشَّهْبُ(3)

ويقول في قصيدة (الأهل أهلي والبلاد بلادي):

أَشْتَاقُهُ شَوْقَ الْمُحِبِّ إِلَى الْهَوَى مَهْمَا يَكُنْ فِيهِ مِنْ اسْتِبْدَادِ
وَأَحِبُّهُ بِالرَّغْمِ عَمَّا نَالَنِي مِنْهُ وَأَمْضِيهِ صَحِيحَ وَدَادِي
مَهْمَا يَجْزُ وَطَنِي عَلَيَّ وَأَهْلُهُ فَلَا أَهْلَ أَهْلِي، وَالْبِلَادُ بِلَادِي(4)

(وممن اشتهر بالشعر القومي من شعراء المهجر الشاعر القروي وإلياس فرحات، وشكر الله الجر، الذي خصص ديواناً مستقلاً أسماه (على مذبح الوطنية)، ولعل أكثرهم حماساً في هذا الباب هو رشيد سليم الخوري (الشاعر القروي) الذي يصرح في مقدمة

1 - كما ورد في قصة الأدب المهجري، د. محمد عبدالمنعم خفاجي، ص 37.

2 - السابق، ص 37.

3 - ديوان فوزي المعلوف، من قصيدة (الغربة في الوطن)، ص 49.

4 - السابق، من قصيدة (الأهل أهلي والبلاد بلادي)، ص 9.

ديوانه الضخم بأن آفات أمته قد حكمت مسمعه، فطوى جناحه عند سريرها، مخاضاً لواقعها الأليم⁽¹⁾.

فقد عاصر الشاعر القروي مرحلة تفتح الوعي القومي عند العرب، حيث عرّف بالوطنية وبنشوء الفكر القومي العربي والأمة العربية وتفتحه في القرن التاسع عشر، وصولاً للحديث عن الحركة القومية العربية وظهورها وامتداداتها في القرن العشرين.

ويذكر الدكتور عيسى الناعوري رأي جورج صيدح في كتابه (إلياس فرحات شاعر العروبة في المهجر) فيقول: (هو الشاعر المهجري الوحيد مئة بالمئة، لم يزوده الوطن بفتات من العلم، وهو قد زود وطنه بوليمة من الطيبات الباقيات)⁽²⁾.

كان شاعر المهجر مؤمناً بأنه ابن وطن مهيب في حاجة إلى عونه، وكان يجد المحبة العميقة لهذه الأمة، والانفعال الحار بكل آلامه وأمانيه، ويستنهض هذا الشاعر الكبير رشيد سليم الخوري المتحمس همة أبناء أمته فيقول:

لَمْ يَبْقَ غَيْرُكَ فِي الْوَرَى مُسْتَبْعَدًا لَمْ يَبْقَ غَيْرُكَ أَيُّهَا اللَّبْنَانِي

أَوْ لَيْسَ فِي لُبْنَانَ عِرْقٌ نَابِضٌ؟ أَوْ لَيْسَ فِي لُبْنَانَ عِرْقٌ نَابِضٌ؟
أَيْنَ التُّرَاثُ تَرَاثُ أَبْطَالِ الْحُمَى أَيْنَ التُّرَاثُ تَرَاثُ أَبْطَالِ الْحُمَى
لَا تُتَكْرَهُهَا فَالْدُمُ الْعَرَبِيَّ قَدْ لَا تُتَكْرَهُهَا فَالْدُمُ الْعَرَبِيَّ قَدْ
إِنَّ الْبَزَاةَ وَإِنْ تَنَاثَرَ رِيشُهَا إِنَّ الْبَزَاةَ وَإِنْ تَنَاثَرَ رِيشُهَا
وَلَسَوْفَ تَضْطَرُّ الْبِلَادُ لِصِيحَةٍ وَلَسَوْفَ تَضْطَرُّ الْبِلَادُ لِصِيحَةٍ

ويقول أيضاً في موضع آخر:

يَا عَالَمًا بِصُرُوفِ هَذَا الدَّهْرِ قُلْ يَا عَالَمًا بِصُرُوفِ هَذَا الدَّهْرِ قُلْ
أَوْ ذَاكَ لُبْنَانَ الَّذِي عَهْدِي بِهِ أَوْ ذَاكَ لُبْنَانَ الَّذِي عَهْدِي بِهِ

صَيَحَاتِهِ وَالْبَرْقُ فِي غَارَاتِهِ صَيَحَاتِهِ وَالْبَرْقُ فِي غَارَاتِهِ
مَنْبَاتُ كُلِّ فِتْيَ كَأَنَّ الرَّعْدَ فِي مَنْبَاتُ كُلِّ فِتْيَ كَأَنَّ الرَّعْدَ فِي

1 - مقدمة ديوان القروي، ص6.

2 - إلياس فرحات شاعر العروبة في المهجر، د. عيسى الناعوري، مقدمة الكتاب، ص10، دار فضاءات، عمان، 2013.

3 - الأعاصير، رشيد سليم الخوري، من قصيدة (الاستقلال حق لا هبة)، ص42، مطبعة الشرق.

يَا حَبْذا وَطْني عَلَى حَالَاتِهِ!
وَالْمَوْتُ أَحْلَى فِي سَبِيلِ حَيَاتِهِ⁽¹⁾

قَالُوا أَتَغْشَقُهُ وَهْذِي حَالُهُ
الْعَيْشُ حَلَوٌ فِي سَبِيلِ رَقِيهِ
ويقول أيضاً :

ضَيْقُ الْآفَاقِ مَحْدُودُ الْحُدُودِ
رَفَلَتْ مِنْهَا الْبَوَادِي فِي بَرُودِ

زَعَمَ الْأَغْرَارَ أَنِّي شَاعِرٌ
وَسَتُبْلَى وَطَنِيَّاتِي التَّيَّي

خَيْطُهَا الْمَنْسُولُ مِنْ حَبْلِ وَرِيدِي⁽²⁾

وَالَّتِي يَحْسَدُ هَدَابُ الضُّحَى

فقد أدرك الشاعر المهجري رسالته إزاء قومه وأمته، إذ جعل الاستعمار في موقفِ التحدي الواعي لكل الأوضاع المسببة في بلادهم، (فقد كان في بلادهم الاستعمار الفرنسي، وكانت هناك معارك ومذابح اشتبك فيها الشعب مع جلاديه، وكان شعراء المهجر وراء كل واقعة، ووقود كل انتفاضة)⁽³⁾.

وقد كانت الهجرة ذاتها في بعض جوانبها نفوراً من الحياة في أرض يسيطر على مقدراتها المستعمرون، وقد عبر عن ذلك الشاعر القروي في قوله:

أُبَيِّتُ جَوَارِهَا أَرْضَا	بَغَيْرِ الذُّلِّ لَا تَرْضَى
بِلَادِ خَسَفَهَا أَمْسَى	عَلَى أُنْبَائِهَا فَرَضَا
عَجِيبٌ أَنِّي مَيِّتٌ	وَعَيْنِي لَمْ تَدَقْ غَمَضَا
أَحْسُ يَدَ الرَّجَاءِ فَلَا	أَحْسُ لِقَلْبِهِ نَبَضَا
هُمُومٌ فِي النَّوَاحِي الصَّدَا	رِ يَزْحَمُ بَعْضُهَا بِبَعْضَا
بِلَادِي...أَيْنَ سَيْفُ الْعَزْمِ فِي وَجْهِ الْقَضَا يَنْضَى؟ ⁽⁴⁾	

1 - الأعاصير، رشيد سليم الخوري، من قصيدة (عيد استقلال لبنان)، ص 52، 53.

2 - ديوان القروي، ص 377.

3 - التجديد في شعر المهجر، د. أنس داود، ص 330.

4 - ديوان القروي، ص 19.

ويخاطب الاستعمار قائلاً:

كَأَنَّ لَمْ يَنْبِكَ التَّارِيخُ مَاذَا يَكُونُ إِذَا الْفَتَى الْعَرَبِي هَاجَا
وَأَنَا بِالْأَسْنَةِ وَالْمَوَاضِي نَقُومُ مَنْ نَرَى فِيهِ أَعُوجَاجَا
وَمَا زِلْنَا كَمَا كُنَّا قَدِيمًا نَفَاجِيءُ كَالنَّسُورِ وَلَا نَفَاجَا
وَأِنْ لَمْ تَنْفَعِ الشَّكْوَى عِلَاجَا وَجَدْنَا بِالسَّيُوفِ لَهَا عِلَاجَا
تَمِيدُ بِنَا الْجِبَالُ إِذَا زَحَفْنَا وَتَرْتَجِ السُّهُولُ بِنَا ارْتِجَاجَا⁽¹⁾

ويقول في قصيدته (إلى دول الاستعمار):

جَهَلْتُ لِسَانَنَا وَلَنَّا حَدِيثٌ يَتَرَجَّمُهُ لَكُمْ عَنَّا الْحَسَامُ
يَبْلُغُهُ مَكَانَ الْفَهْمِ مِنْكُمْ وَصِيغَتُهُ كَلُومٌ لَا كَلَامٌ⁽²⁾

وقد ظل بعد الهجرة يواصل المقاومة في غير كل....

لقد اختار الشعراء في المهجر هذا الطريق عن إيمان ووعي، وقد رثى القروي الشهداء الذين أعدموا بقصيدته التي يقول فيها:

خَيْرُ الْمَطَالِعِ تَسْلِيمٌ عَلَى الشُّهَدَا أَرْكَى الصَّلَاةِ عَلَى أَرْوَاحِهِمْ أَبَدَا
فَلْتَنْحَنِ الْهَامُ إِجْلَالًا وَتَكْرَمَةً لِكُلِّ حُرٍّ عَنِ الْأَوْطَانِ مَاتَ فَدَى
يَا أَنْجَمِ الْوَطَنِ الزُّهْرَ الَّتِي سَطَعَتْ فِي جَوْ لُبْنَانَ لِلشَّعْبِ الضَّلِيلِ هَدَى
قَدْ عَلَّقْتُمْ يَدَ الْجَانِي مُلْطَخَةً فَقَدَسَّتْ بِكُمْ الْأَعْوَادَ وَالْمَسَدَا
حَتَّى غَدَا كُلُّ حُرٍّ لَوْ نَصَبَتْ لَهُ حَبْلَ الْمَنُونِ عَلَى هُدَايِهِ سَجَدَا

أَكْرَمُ بِحَبْلِ غَدَا لِلْعَرَبِ رَابِطَةً وَعُقْدَةٌ وَحَدَّتْ لِلْعَرَبِ مُعْتَقِدَا⁽³⁾

وتتوالى الدعوات والصرخات وفي أثنائها لا ينسى هؤلاء الشعراء بعض الأبطال الذين يحاولون الوقوف في وجه الظلم، والقيام بالثورات وإن كانت صغيرة لاتستطيع تحقيق

1 - ديوان القروي، ص360.

2 - السابق، ص400.

3 - الأعاصير، رشيد سليم الخوري، من قصيدة (الشهداء)، ص56.

أغراضها فهي خطوة على الطريق، وكانوا يتابعون الثورات في العالم العربي ويساندونها بأقلامهم⁽¹⁾.

(وبزغ من بينهم من يتسربل أردية فضفاضة، ويدعي أنه ينتمي إلى الإنسانية في عمومها وشمولها، ويتهم النزعة القومية والوطنية بأنها نزعة ضعيفة لاتليق باتساع أفكاره، وانطلاق آماذ اهتماماته .. وقد كان في مقدمة هؤلاء جبران و نعيمة، وهما شخصيتان على جانب كبير من الخطورة ومن بعد هذا التأثير..)⁽²⁾.

لكن هذا لا يدل على عدم حبهم لوطنهم أو عدم أخذه بعين الاعتبار، بل اتخذه على قالب ثان، وقد ذكر الدكتور صابر عبدالدايم في كتابه أدب المهجر: (أن الوسيلة التي لجأ إليها أدباء المهجر الشماليون أخصب خيالاً و أمتع فناً من التعبير المباشر الذي لجأ إليه أدباء المهجر الجنوبي)⁽³⁾.

فقد كان جبران ذا فكر وطني خاصةً في تلك الفترة التي عاشها في حياته أيام السلطة العثمانية ومن بعدها الاحتلال الفرنسي للبنان، وقد كتب كثيراً عن رجال السياسة، وما زال الكتاب إلى الآن يكتبون عن رجال السياسة مقلدين جبران، وأفضل ما كتبه جبران (لكم لبنانكم ولي لبناني)⁽⁴⁾.

وإن كتاب النبي، الذي قدم فيه جبران صورة للغربة في أمريكا، وأشواق عليا إلى وطنه الذي غاب عنه ثم رجعت سفينته إليه مرة أخرى، ومرداد، والفلك، وقمة المذبح، كلها تكون صورة معبرة عن واقعية حب الوطن وخاصة جبل صنين.

وكذلك جبران لم يستطع أن يحصر ولاءه في وطنه وقوميته، فقد اعتمد على ادعاء عريض هو أنه إنساني النزعة، فيقول: (أحب مسقط رأسي ببعض محبتي لبلادي، وأحب بلادي بقسم من محبتي لأرض وطني، وأحب الأرض بكليتي لأنها مرتع الإنسانية)⁽⁵⁾.

وكذلك دعا أمين الريحاني إلى تحرير الأمم العربية وتطهيرها من الاستعمار لأن الاستعمار توأم الموت، والحرية لاتأتي إلا بالقوة فيقول:

1 - ينظر العصابة الأندلسية، د. نعيمة مراد، ص133.

2 - التجديد في شعر المهجر، د. أنس داود، ص332.

3 - أدب المهجر، د. صابر عبدالدايم، ص 103.

4 - موسوعة جبران خليل جبران، جوزيف الخوري طوق، ص136، المجلد الثاني والأربعون، دار نوبليس للنشر، الطبعة الأولى، بيروت- لبنان، 2000.

5 - المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران، ميخائيل نعيمة، ص229.

(لاحياة إلا بالحرية، ولاحرية إلا بالسيف)⁽¹⁾

وكانت حرية الأمة حلمه الذي يملأ عليه كل خيال، فحين وقف على جسر بروكلين، وسبحت به التأمّلات في حال وطنه الأسير، وفي الشرق المعني، نجده يتغنّى في أسى وفي أمل:

(متى تحوّلين وجهك نحو الشرق أيتها الحرية؟)

هنا يذكر أمنيته حول حرية بلاد.... ويبقى في موقف متسائل (متى يمتزج نورك بنور هذا البدر الباهر، فيدور معه حول الأرض، ويضيء ظلمات كل شعب مظلوم؟)⁽²⁾ وواضح مما قدمنا من الأمثلة الصادقة على الصراع الحاصل لدى شعراء المهجر ضد الاستعمار، وأستطيع القول بأن جُلَّ شعراء المهجر لم يكن لديهم تعابير مشابهة تُظهر حبهم لأمتهم والوقوف ضد الاستعمار، لكن هذا ليس دليلاً على الشك في انتمائهم للوطن، لأنه قلَّ أن خلا شعر واحد منهم من القصائد الوطنية، فقد جاهد الشعراء المهجريون من أجل حبهم للأمة والوقوف ضد الاستعمار، فقد عبروا عنها بأنواعٍ شتى، لكن نرى أن الصراع الحاصل بينهم والاستعمار أتى بنوع من الانتصار لصالحهم، لأن الاستعمار مهما أطل في ممارسة القمع، فسوف يأتي يوم يتطهر الوطن من سطوته وتنتزع الأمم بالاستقلال والحرية، فعلى مدى مئات السنين تعاني الأمم العربية من الاستعمار، لكن مع الأسف إلى الآن مستمرة.

وهكذا سارت رحلة شعر المهجر عبر صراعاتها سواء مع أنفسهم، أو الطبيعة، أو المجتمع..... وللصراع بقاؤه.

¹ - الريحانيات، أمين الريحاني، ص144، الجزء الثاني، يوسف صادر للطبع، الطبعة الثانية، بيروت-لبنان، 1923.

² - التجديد في شعر المهجر، د. أنس داود، ص72.